

مكتبتي ٢٦

فارس بمائة فارس

وقصص أخرى

بقلم : عبد الرحمن صديق
رسوم : عزيزة مختار

دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة: ج.م.ع.

إعداد الماكيت: أماني والي

الفارسُ يعنِى البطلَ الذى يتقدَّمُ راكباً فرسَهُ (حصانه).. وهو ذو شخصيةٍ جريئةٍ يتَحقَّقُ على يدَيْه النصرُ فى كل تحركاتِه، قوىٌّ واثِقٌ.. كأنه النجمُ اللامعُ يُعجَبُ به كل مَنْ حولهُ لشجاعتِه فى الحق، كريمٌ ذُو مُروءَةٍ، لا يَخافُ ولا ينهزمُ..

وَبطل هذه القصةِ - ستقولون: هل كان عنده حِصانٌ يمْتَطِيه وَيتباهَى بنفسِهِ أمامَ الناسِ - مثلا - أقول: لا.

وإنما فقط هو تَشْبِيهٌ، يَعْنى أنه كالفارسِ فى شجاعتِه وإقدامِه.. وأخْلاقِهِ..

إنَّهُ الطفلُ أحمدُ إبراهيمُ حسن..

كان مولوداً فى قريةِ ميت فارس، التى تقع على بُعْدِ خمسةِ كيلو مِتراتٍ من مدينةِ دكرنس، وقد سجَّلنا هنا اسم مدينة دكرنس - لأن المدرسة الابتدائية التى يَقصِدُها جميعُ التلاميذِ كانتْ بدكرنس..

فمنذُ أكثرَ مِنْ خمسينَ سنةً لم تكنْ أكْثرُ القُرى متمتعة بوجُودِ مدارِسَ، فكان تلاميذُ ميت فارسٍ - وغيرِها من القرى المنْتشرَةِ حوْل المدينةِ - يقصدُون دكرنس لوجُود المدارسِ بها..

وكانَ أحمدُ طفلاً بالصفِّ الأولِ - فى السَّادِسَةِ من عمرهِ - يأتى إلى المدرسةِ الابتدائيةِ بدكرنس قادِماً من القريةِ - خمسة كيلو مِتراتٍ فى الذهابِ يومِياً، ومثلها فى العودةِ..

عِلى أقْدامِه الصَّغيرةِ يمشى.. يَسيرُ فى البردِ والمطرِ والأوحالِ، وفى الزَّوابعِ أو فى الحرِّ الشَّديدِ..

لقد كان كثير من التلاميذِ يسافرُون إلى المدرسةِ - بدكرنس بواسطةِ القطارِ أو على ظهورِ الحميرِ - ويعُودُون بنفسِ الوسيلةِ..

أما أحمدُ فلم يكنْ يملِك القرشَ الواحدَ لتَذْكرةِ الرحْلةِ بالقطار أو الحافلةِ.. ومن أيْنَ له أنْ يأتىَ بالقرشِ الثانى فى رِحلةِ العودةِ؟.. وحِين يَتهافتُ التلاميذُ حول باعةِ الحلوى والبطاطا المشْوية (والسندوتشات) والفطيرِ المحلَّى بالعَسَلِ فهُمْ يشترُون ويأكلُون.. بينَمَا أحمدُ يجوعُ ولا يجدُ ما يأكله.. هو طفل يَتَطلع لما فى أيْدى زُملائه من بعيدٍ.. يريدُ أنْ يشترِىَ مثلهم، لكنَّه لا يَمْلِك ما يشترِى به.. وليسَ فى استِطاعَتِه أنْ يَفعَل ذَلِك.. ولَكنَّه كانَ يملِك قدرَةً هائلة على



الصَّبْرِ، لا يْظهرُ على وجهِهِ وملامِحِه سوى علَاماتِ الثِّقةِ والثَّبَاتِ..

هـو صَغـيرٌ فـى عُمـرِه، كبـيرُ النفـسِ قَـوِىٌّ الشخْصيَّةِ!!

وعندَمَا يسأَلُه أحدٌ زملائهِ التلاميذِ مُستفسرًا:

- لماذا لا تشترِى يا أحمدُ من هذه الحلْوى مثْلَنا؟
- فيقولُ باسمًا راضيًا صَابِرًا:

الحمدُ للهِ أنا شبَعانٌ..

- فيعْرضُ عليه زَميلُه القرشَ أو القرشَيْنِ سُلفةً قائلا: أنا مَعِى نقودٌ خُذْ منهَا وقمْ بردِّها غدًا واشترِ ما تُريدُ..
- فيقولُ أحمدُ فى عزةٍ وكبرياءٍ: قد أكلْتُ كثيرًا فى البيت فى الصَّباحِ قبل حُضُورِى للمدرسةِ وأنَا لستُ فى حاجةٍ إلى نقود.. وشُكرًا..
- وَيقولُ زميلٌ آخرُ لأحمدَ: لابُدَّ أنَّك أحضَرْتَ معك (سندوتشات) من البيت وكذلك بَعْضَ الحلْوَى لأنَّك لستَ فى حاجةٍ لأن تشترِىَ شيئًا، فنَحْنُ لم نُشاهِدك تأكل شيئًا..
- ويقولُ زميلٌ ثالثٌ: ربما يكونُ أحمدُ قد أكلَ طعامَه والحلوْى دُونَ أنْ نرَاه..

- فيقولُ أحمدُ وَاثقاً: نَعمْ.. والحمدُ للهِ..

لقد بدأتْ الصُّورةُ تتَّضحُ.. بدأنا نَعْرفُ حالةَ المعيشةِ التى يعيشُ فيها أحمدُ..

أمَّا الأسْرةُ التى أنجبتْ أحمدَ، فلم يكنْ حالُها يَسرّ الخاطرَ.. فقد كان أحمدُ هو الولدَ الوحيدَ ولم يَتمتعْ بحنانِ أمِّهِ ورعايتِها.. فقد توفيت وعمرُه عشرةُ أشْهُرٍ وقتَها، وعندئذٍ تزوَّجَ والدُ أحمدَ بامرأةٍ جديدةٍ لم تَستَطعْ أن تُعْطِىَ لأحمدَ حنانَ الأمِّ.. ووالدُه لم يكنْ لدَيْه المشاعر الرقيقة الأبَوِيَّة ليهتمَّ به.. لا يُنْفِقُ عليه فى شَىء لأنهُ مفلسٌ، فلا زِىَّ مدرسياً، ولا حذاء لائقا، ولا مَصْروفاتِ ولا طعامَ، سِوَى كسراتِ الخبزِ المتناثرة فى البيتِ هنا وهناك، وبعْضِ الأوْراقِ الخضراءِ من الفجل والسريسِ (الشيكوريا)..

كانَ والدُ أحمدَ يُنفِقُ كلَّ ما تَصِلُ إليه يَدُه فى عَادَةٍ خَاسرةٍ خَائبةٍ، وهِىَ التدْخينُ فى المقهَى الوَحِيدِ فى القريةِ.. لما يسمى (الجوزة).. رغمَ أنه مريضٌ بفقرِ الدمِ وَمشَاكل فى القلبِ والرِئَةِ، وَهُوَ لا يكفُّ عن السُّعَال.. وعندما يلتقى بوَلَدِهِ أحمدَ عن طريقِ الصُّدفةِ يبادِرُهُ صائِحاً:

- أنت يا ولدُ: ألم يحنْ الوقتُ لكىْ تعْقِلَ وتَظلَ معى لتُساعِدنى؟
- فيقولُ أحمدُ (متعجبًا): فى أىِّ أمرٍ أساعدك يا أبى؟ أفى التَّسَوُّل وَمدِّ أيْدينَا للناسِ؟
- فيَحتجُّ والدُه صائحًا: أليْسَ هَذا أفضل مما أنْتَ فيه؟ فأنْتَ لا تكسبُ شيئًا، والمدْرَسَةُ لا تُعطِيك نقودًا، وأنت تُعذبُ نفسَك بالسيرِ مَسَافاتٍ طويلة إلى المدرسَةِ وتُعذّبُ نفسَك بقراءةِ الكُتبِ، أنت وزملاؤُك كالمجَانين، لا تعرفون الحياةَ ولا المصلْحة.. وأنا أبُوك ولابدَّ أن تستَمِع لكلامِى وتُطيعَنِى..
- فيبْتَسِمُ أحمدُ فى - هُدُوءٍ - قَائِلاً: يَا أبى: إنَّنِى لا أحَمِّلك تكاليفَ تَعْليمِى، فدَعْنِى أختارُ لنفسى الطريقَ الذى سوْفَ أسْلُكه.
- وينصرفُ أحمدُ فى كل مرة عند حدُوثِ مثل هذا الحوَار دونَ أنْ يَسْتجيبَ لأوَامرَ وَالدِه وتَوْجيهاتِه الخاطئَة.. إنَّهُ لا يكْرَه والدَه، ولكنَّهُ لنْ يُقلِّدَه، فإنَّ الصُّورة التى يرى عليْهَا وَالدَه، صُورةً لا ترْضيه.

- سيقول أحدُكم: أين بُطُولةُ أحمدَ هنا؟ وهلْ هذه هِيَ الفروسية؟

- ويقول آخر: صَبْرًا فالأحداثُ ما زَالتْ تتَوالى..

- ويقول ثالثٌ: إنما البُطولةُ لا تَأتِى فى يومٍ وليلةٍ..

وبعدُ.. فَإنَّ بعضَ الناسِ يبذلُون الجُهْدَ والمالَ فى عملٍ يبدءُونَه.. ثم يتراجَعُون.. يتَخبَّطون ويتردَّدُون..

وذلك بعد فترةٍ قَصيرةٍ أو طَويلةٍ من بَدْءِ مشْرُوعِهِم.. يرْجِعون قبْلَ بُلوغِ الهدفِ وهو (نهاية السباقِ).. لا يُكمِلون المِشْوَارَ، فتَضيعُ عَليْهم الأمْوال والأيامَ دونَ ثمرةٍ..

إنَّ مَنْ يبدأ الزِّرَاعةَ عليه أنْ يصْبِرَ ويجْتَهِدَ فى خدمةِ الأرضِ، وأنَّ زِراعةَ كل محصُولٍ تَستلزمُ وَقْتًا مُعَيَّنًا، ليس يومَيْن أو ثلاثة وإنما شُهورٌ، فالقمحُ لابُدَّ أن تَنْتَظِرَه ستة أشْهُرٍ، يَبذل فيها الفلاحُ الجهدَ والعناية بالأرضِ.. يَرْعَى النباتَ فى مراحلِه المختَلفةِ ويصْبِرُ حتى يأتِىَ وقتُ الحصَادِ.. كذلك بالنِّسبةِ للقطنِ الذى يَسْتغرقُ ثمانيةَ أشْهرٍ.. الأرضُ والنباتُ تلزمهما العناية بالسّمادِ

والـرَّىِّ ومُقَاومـةِ الحشـائشِ الضَّـارةِ والأمـرْاضِ والفِطريات وغيرِ ذلك..

ومثالٌ آخر، فبالنسبةِ للطَّعامِ: لابُدَّ مِنْ وَقتٍ لإتمامِ النُّضْجِ فإنْ لم يصلِ إلى وَقتِ تمامِ النُّضْجِ فلنْ تَميل النفسُ إليه ولنْ يُساوى شيئاً كطعامٍ لإنسانٍ.. فمَنْ منَّا يأكل الأرْزَ قبل النضجِ؟ ومَنْ منَّا يُمْكنُ أنْ يأكلَ اللحمَ أو الدجاجَ أو السمك.. وهى مازالتْ بها بعْضُ الدماء لا هى ناضجة، ولا هى على حَالِها، قبل أن تُوضَعَ علىَ النَّارِ؟ فإن الطعامَ عِنْدَ شرائه قبْل أن يُوضَعَ علىَ النارِ يُساوى ثمنَه.. وبعد أنَ يَنْضجَ تَمَاما يُساوِى ثمنًا أكبرَ - أما فِى وَسَطِ الطريقِ فإن مَصيرَه القمَامَةُ لا يُساوى شيئاً..

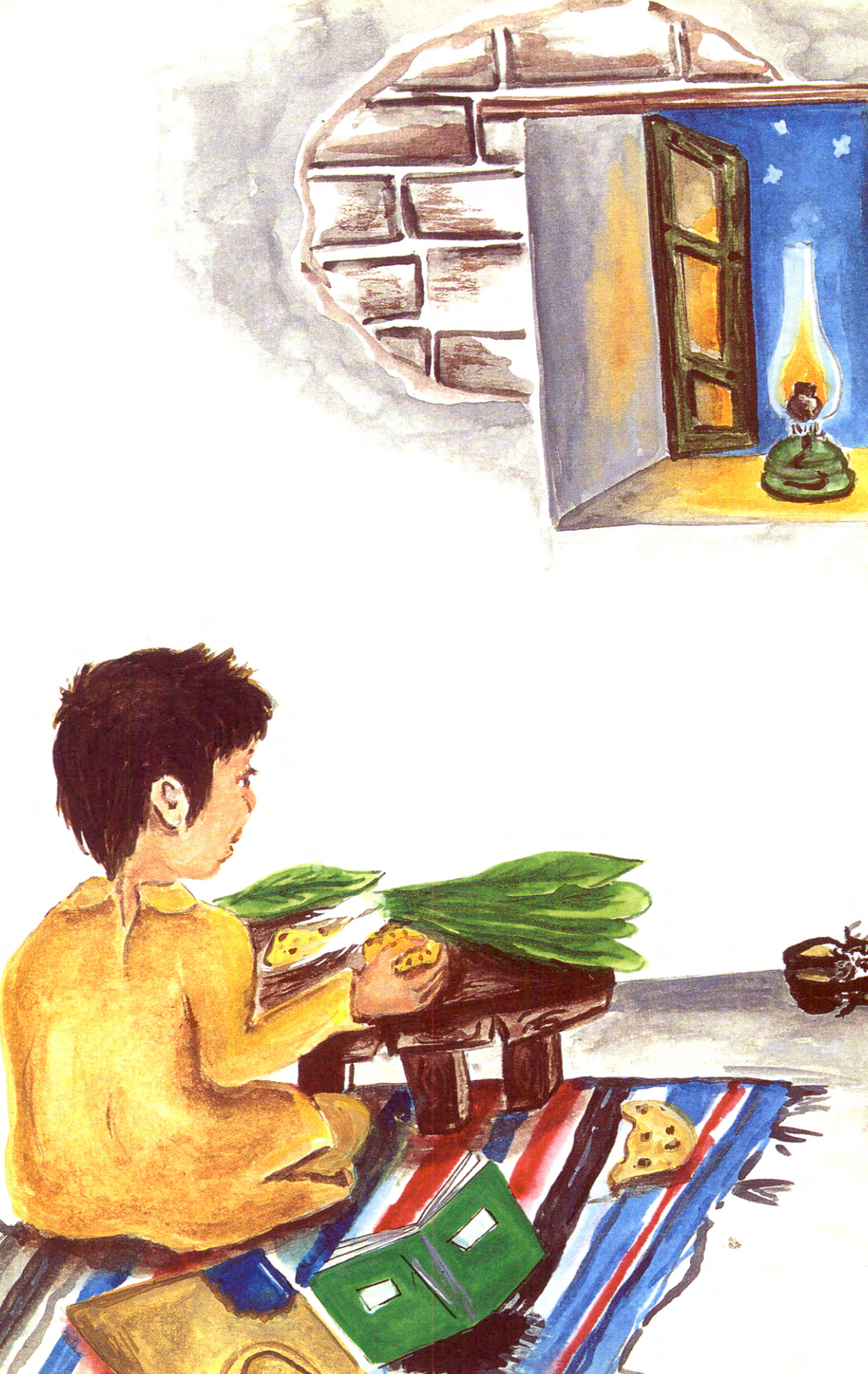
والذى يَبْدأ فى مَرْحَلَةِ التَّدريبِ على عملٍ - أو مَشْرُوعٍ معيَّنٍ - لابد أن يُكمِّل البرنامجَ كلَّه، ليَحْصُلَ على النتيجةِ التى تُوازِى ما بُذِل من مصرُوفاتٍ وأيامٍ من حياتِه ومعاناتِه.. أما الذى لا يُكمِل التدريبَ أو المشروعَ، ويمِل ويتردَّدُ ويهرَبُ من وَسَطِ الطريقِ قبل جنْىِ الثمارِ، فإنه يخسَر كل ما بَذَل من جُهْدٍ ومالٍ

وعمرٍ.. ويكونُ هذا مُؤَشِّرًا لضَحَالةِ فكْرِه، وعَدمِ قدرَتِهِ على التخطِيطِ الجيِّد من أوَّلِ الأَمْرِ، ويكُونُ سخرية لِمَنْ حَوْله..

وإنَّ كلَّ الناسِ حينَما يُولَدُون فَهُمْ بِخَيْرٍ وسِوَاسِية، والاخْتِلافُ يأتى بعَد ذلك بِحسَبِ حَظ كلِ منهم فى ظُروفِ النشْأةِ والتربيةِ والتَّوجيهِ والرِّعايةِ.

فهل وَجَدَ أحمدُ الحظَّ الطيبَ، والظُّروفَ المُواتِيةِ والتَّوْجيه والرِّعايةِ؟ أم أنه وجَدَ العواصفَ الوحْشية تتربصُ به فى كل مكانٍ؟

كانَ أحمدُ يَرَى الأمهاتِ والآباءِ يهتمُّون بأولادِهم جدًا ويتابعُونَهم بالتوجيهِ والحنَانِ فى كل تفاصيلِ حياتِهم، إن الفروسية التى نَصِفُ بها أحمدَ، قد ظهَرتْ عندما فكر فى كل تلك الخواطِرِ وصمَّم أنْ يستمرَّ ولا يرْجِعَ مِنْ وَسَطِ الطريقِ، مع أن الظروف والأحوال مِنْ حَولِه تضغط عليه وتمنَعُه مِنَ الاستمرَارِ.. وله العُذْرُ إنْ لمْ يبدأ فى طريقِ المدرسةِ والتعليمِ، فلا سند ولا مال ولا مُشَجِّعِينَ.. بل يهدِّدهُ الخوفُ والجوعُ والإهمال من كل اتجاهٍ..



ومعَ ذلك يستمرُّ، فأىُّ طفلٍ هذا؟ إنه طفلٌ معجزةٌ؟ أليستْ فروسية؟

صدقتْ هذه التَّسْمية إن استمرَّ حتَّى يجْنِىَ الثمارَ..

قلوبُنا معه.. ليْتهُ يستمرُّ ولا يرْجعُ..

ليتهُ يحافظُ على عزيمتِه وشدَّتِه فى المقاومةِ، إنَّنا نتعجَّبُ:

مِنْ أينَ له هذه العزائمُ وهُو طفلٌ فى مَهَبِ الريحِ؟..

كان من الممكن أن يترْكَ المدْرسةَ طاعةً لوالدهِ ويتخلصَ من هذه المعاناة ويتحرَّرَ من القيودِ اليوْميةِ فى مجالِ التَّعليمِ، ويتمتعَ باللعبِ والانْطلاقِ هنا وهناك.

كان أحمد شديد الذَّكاءِ برغمِ طفولتِه، بعيدَ النَّظرِ فقدْ أدرك أنَّ ذلك الكوخ الذى قدْ وُلدِ فيه بالقريةِ، ليْس هُو المستقبل، وأنه لا يُريدُ ولا يرْضى أن يكونَ متسوِّلاً للخُبْزِ.

إنَّ أحمدَ يستلهمُ المساعدةَ من القوَّةِ التى تنْدفعُ إليه مِنْ داخلهِ فتمنحُه طاقاتٍ لا يجدها فى

أمثالهِ ممَّنْ هُمْ فِى مثْلِ عُمْرِه، لابدَّ أنَّ الله قد ساعَدَه وسنَدَه وأخذَ بيده.

كانَ أحمدُ ينظرُ إلى الناسِ فيَجِدُ أنَّ أحسنَهم هم المتعَلمُون.. إنهُ يثِقُ أنَّ طريقَ التعليمِ الشاقِّ فى الطفولةِ والصِّبا، هُو ثَمنُ المجدِ والشَّرَفِ الذى يَسيرُ إليه كأنَّه يلمحهُ مِنْ بَعيدٍ فى الأفقِ، إنَّ ما ينفقهُ الآنَ من جُهْد لن يَضيعَ سُدًى، بل هُو ادِّخارٌ له قِيمتُه، ثروةٌ عَريضة.. إنه يَأمل أن يَصِل إلى الكرامةِ والأمانِ والخيرِ والأملِ المنشُود بدلا من الخوفِ والجوعِ والمهانة، لابدَّ إذًا أن يصبِرَ فلن يَستمرَّ الخوفُ بل سَينْهزمُ الخوفُ، كما سيخْتَفِى الجوعُ.. وسَوْفَ تَأتِى عِزةُ النفسِ بدلا من المهانةِ.. ولن يكونَ موقفهُ حين ذلك فى قاعِ المجتمعِ أو فى الترتيبِ الأخيرِ..

سوْفَ يستَغْرِقُ التعلْيمُ من الطَّالبِ عِدَّةَ سنواتٍ من عمرِه.. سنواتٍ تَصِل إلى العشرين.. لكنهُ طريق المجد، فيه تَهونُ كل المشقاتِ، إن يومًا من الكرامةِ فى الحياةِ هو بمائةِ سنةٍ من الضياعِ..

كان يحلُم بذلك اليومِ الذى سَتكونُ له أسْرةٌ.. فماذا سَيقُول لوَلدِه الذى سَينْجبهُ

حينذاك، هل سيقول له: هيا نتسول الخبز؟.. أين العقل هنا؟ لا للعار.. ولا للضياع.. إنها حياة واحدة: ولن أسلم - إلا بأن تكون حياة مشرفة - (هكذا قال أحمد يحدث نفسه)..

والأمر المبهر والجميل - في طبع أحمد أنه رغم قسوة نشأته والتي تكلمنا عنها كثيرًا كان من طبعه بين زملائه، الزعامة وحضور الذهن وسرعة البديهة، فكلما كان بين زملائه الكبار أو الصغار في الفصل الدراسي أو بين أهل القرية نجد صوته مسموعًا.. بالرأي السديد، فصيحًا مقنعًا واثقًا لا تستعصي عليه إجابة، يعرف كل الأمور، كما لو كان أكبر من عمره بكثير..

وبطبيعة الحال كان متفوقًا في الدراسة، سريع الاستجابة لأسئلة الأستاذ، ناجحًا في كل المناقشات والامتحانات..

وكان يستغل الطريق من دكرنس إلى ميت فارس يوميًا - في الذهاب والعودة - في القراءة والحفظ فلا يضيع الوقت كله في السير فقط.. بل كان يجلس على أرض الطريق أحيانًا،

ليكتُبَ الواجباتِ المدرسيةَ، ثم يواصلُ السيرَ والاستذكارِ.

عجباً لهذا الطفل.. كان فوقَ الهزيمةِ.. أقدامهُ الصغيرةُ كانت تدوسُ الفشل فتقتله.. لا حزنَ ولا اكتئابَ ولا بُكاءَ على سوءِ الحظِ، عزيمةٌ كأنها الحديدُ أقوىَ من الماَسي والمشاكلِ.. كان يقول لنفسه: لابدَّ من دفعِ الثَّمنِ.. لابدَّ أن أكونَ شيئاً.. لابدَّ أن أظهرَ على مسرحِ الحياةِ الكبيرِ.. فالبقاءُ للأفضَل.. لا أحدَ هُنا أفضل منى، فالأفضلية بالفكرِ والعقلِ والعزيمةِ وليس بالقرشِ أو الثوبِ أو الطعامِ.. إنَّنى فى مرحلةِ الإعْدَادِ، والنتيجة لم يجنْ وقتُها بعدُ، حتى لو لم يكن لى بيتٌ فسوف أعيشُ.. لن ألغىَ عقلى وسوف أصنعُ الظروفَ.. وأنا أقوى من العواصفِ.. وأقوْى من كل الظروفِ!! فأنا متفوِّقٌ على زملائى.. إذاً أنا أفضَل منهم وهمْ يعرفونَ ذلك، وهم يحترمونَنى رغم ثيابِى الباليةِ ورغمَ إعفاءِ المدرسة لى من المصروفاتِ السنويةِ..

لقد فكرَّ.. ثم كانَ الحلُّ.. لقد بحثَ عن عملٍ ليُنْفِقَ منهُ علَى نفسه، فلولا الشدةُ ما كانَ

التفكيرُ فى حلٍّ للخُروجِ منها.. ولولا المُعاناةُ ما كانتْ القوةُ لمقاوَمتها.. ولولا الزلازل مَا احترزَ الناسُ، وما قاموُا بتقويةِ بيوتِهم والحرصِ من المفاجآتِ..

وَجَدَ أحمدُ عملاً فى محلٍّ بدكرنس.. (مطعم للفول والفلافل).. يعمل به لساعتين بعد خُروجِه من المدرسة - وقبل عودتهِ للقرية.. فى وَقتِ وجبةِ الغِداء وازدحامِ المطعمِ بالناسِ.. هذا العمل كان هو توصيل الماءِ للزبائنِ للشربِ وتنظيفِ الموائدِ وغسيلِ الصحونِ وجمعِ القمامةِ وإبعادِها خارجَ المطعمِ.. وكانَ أجْره أنْ يتناوَل طعَامَ الغداءِ وقبل انصرافه، يَحْصل على خمسةِ قروشٍ أيضاً.

إنَّ أول يومٍ عَمِلَ فيه، وأول خمسةِ قروشٍ فضيةٍ قبضَ عليها فى كفهِ الصغيرةِ.. كان مثل يومِ العيدِ.. ولم ينمْ منِ الفرَحِ.. وكان يُخرِجُ قطعة النقودِ من جيبِه كل فترةٍ ينظرُ إليها كأنما ينظرُ إلى القمرِ ليلة البدرِ، يُخْفيها عن والِدِه حتى لا يأخذَها منه غصْبا.. إنَّ أحمد يخطط لشراءِ سروالٍ (بنطلون) جديدٍ وقميصٍ وحذاءٍ.. سوف تمرُّ ثلاثةُ أشْهرٍ قبل الشراءِ.. لجمعِ الثمنِ.. وإنَّ

العملَ مستمرٌ، والمدرسةَ مستمرةٌ، وادِّخارَ النقودِ مستمرٌ، وادِّخارَ العلمِ والدُّروسِ مستمرٌ. وكأنَ رائحةَ البَهجةِ والتفاؤلِ تَهُبُّ من بعيدٍ فى الأفقِ، كأنَّها تُشيرُ له وتقول: أنا مَعَكَ على مَوْعدِ يا أحمدُ.. اصبرْ يا أحمد.. أنا فى الطريق، ولتكنْ أنتَ أيضاً فى الطريقِ!!..

ومرَّت الشهورُ، وخمسةُ القروشِ تزيدُ وتتضاعفُ.. حتى صارتْ معه الجنيهاتُ.. أكثر من أربعةِ جنيهاتٍ.. وكان يكتُم السرَّ فى نفسه فلا يبوحُ به لأحدٍ.. وكان مِما ساعدَه على الاستمْرارِ فى عملِه: أمانتُه وأخلاقُه الطيبةُ وعملُه فى صمتٍ وإخلاصٍ.. وازدادَ وقتُ العملِ فصارَ يعمَلُ حتَّى المساءِ وكانَ صاحبُ المطعمِ يتركه لاستذكارِ دروسِه على إحدى الموائدِ عندما تخفُّ حركةُ العملِ.. وازدادَ أجرهُ إلى سبعةِ قروشٍ فى اليوم.. ثم إلى عشرةِ قروشٍ.. وذهب إلى متاجرِ الملابسِ، وأخيرًا تحققَ أملهُ فى شراءِ السروالِ والقميصِ والحذاءِ والجوربِ، وكان يحتفظ بما يدخرهُ من النُّقودِ داخل طياتِ ملابسِه، وكان كلُّ همِّه هو الاحتراس من سرقتِها أو ضياعِها، وكان

لا يهمُّه نظرات بعضِ زُملائِه حين يُمرُّون عليه وهو يكنسُ المطعمَ أو يخدمَ الزبائنَ، وكان أمرًا طبيعيًّا أن يُحاورَه أحدهُم قائلا فى شبهِ تهكمٍ:

- ما هذا يا أحمدُ.. هاتِ لنا سندوتشَ فولٍ وأصلحْه!!

فيبتسمُ أحمدُ ويقولُ موافقًا:

- حاضرٌ، هذا عَملى وأنت زبُونٌ وأنا لا أطْلُبُ منك إحساناً ولا أسبِّبُ لك أذًى، وكان يقول فى نفسه: (وأنا مازلتُ أحسنَ منك وأشْرفَ منك لأننى مازلتُ متفوقا فى دراستى)..

ويقول آخرُ هازئًا: - لم يكن هناك داعٍ للمدرسةِ يا أحمدُ.. (وصاحبُ بالين كداب)..

فيردُّ أحمدُ ببساطةٍ: - هذه حياتِى أنا، وَأنَا لم أطلبْ منك المشورةَ، لتكنْ فى حالِك ودعْنِى وشأنِى.

ولما كان أحمدُ قد أصبحَ متمتعاً بالمُدَّخرَاتِ من أجره، فإنَّ وجودَه بالمطعمِ حتى المساءِ ليس فيه شىءٌ مادام يَستَذْكرُ دروسَه، ثم يركبُ القطارَ الأخيرَ من دِكِرنس إلى القريةِ وهكذا صار يملك



قروشا كثيرة تزداد مع زيادة قوَّته البدنية وعمره وخبرته..

وتتوالى السنواتُ ويحصلُ على الشهادة الإبتدائية.. ويصبحُ مظهرُهُ أفضل، ملابسُه جديدةٌ، بل إنه قد بدأ فى السنة الأخيرة فى سَداد المصروفات المدرسية من ميزانيته..

ونظرًا لأمانته المستمرة منذُ بدء العمل فى هذا المطعم فقد أُسنِدَ إليه صاحبُ المطعم كتابة حسابات المطعم. كذلك أُسنِدَ إليه شراءَ الخامات اللازمة للمطعم من المتجر الكبير فى المدينة.. ثم تحصيل النقود من زبائن المطعم وتوريدها فى المساء إلى صاحب المطعم، الذى رأى أن يسكنَ أحمدُ بدكرنس، ليكونَ قريبًا من المطعم لأكبر وقتٍ ممكنٍ..

وصار أحمدُ يَعْمَلُ ساعتين قبل المدرسة، من الخامسة والنصف صباحًا حتى السابعة والنصف - ثم من الخامسة مساءً حتى العاشرة..

وعند حصوله على الثانوية العامة كانت مدخراتُ أحمد قد ازْدادَتْ وجميعها لا سمسرةَ فيها ولا اختلاسَ، بعيدًا عن كل شبهةٍ وعن كل حرامٍ..

واعتذر لصاحب العمل بدكرنس مُستقيلاً، ليبدأ مرحلة جديدةً من الحياة والدراسة الجامعية بالقاهرة، وعزَّ على صاحب العمل أن يتركه أحمدُ بخبرته وأمانته وأدبه، بعد كلّ هذه السنين، فصحبه إلى القاهرة وبحث له عن مسكنٍ بالجيزة..

وكانت المفاجأةُ المبهرةُ أنْ استأجرَ صاحبُ العملِ دُكانًا بالجيزة كمطعمٍ هُناك، يديرهُ أحمدُ فى وقت فراغه. فقد صار أحمدُ طالبًا بكلية التجارة جامعة القاهرة (انتساب)، وإنَّ أمانة أحمدَ المعهودةَ جعلت صاحبَ العملِ - الذى عاد إلى مطعَمه بدكرنس - يطمئنُّ على رأسماله بالجيزة لأنَّهُ فى يدأمينة..

ولقد ازدادَ «أحمد إبراهيم حسن» خبرةً وقوةً وثقة بنفسه، وازدادتْ رائحةُ البهجة - التى كانتْ تلوحُ من بعيدٍ - ازدادتْ قربًا من أحمدَ وكأنما تحيّيه بمحبةٍ وتبتسمُ له بإعجابٍ، وتُذكره بقولِ اللهِ تعالى فى سورة يوسف:

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [آية: ٩٠]

وتخرَّجَ أحمدُ فى كلية التجارة سنة ١٩٦١ واضْطر أن يُصفى أعماله تاركا دُكانَ الجيزة،



حيث تسلَّم وَظيفتَه فى مأموريةِ ضرائبِ دكرنس، واستمرَّ فى الوقتِ نفسه كطالبٍ بنفسِ الكليةِ بالدراساتِ العليا، يذهبُ إليها فى أوقاتٍ متفرقة..

وتمرَّ الأيَّامُ ويرى أحمدُ أن يستقيلَ من عَملهِ بالحكومةِ، وينشئَ عدةَ مكاتبَ للمحاسبةِ الضريبيةِ بمدنِ دكرنس، والمنزلة والمنصورة والقاهرة..

تزوج أحمد وأنجب طفلين. كبِرَا وشَاهَدا والدَهما، يقتدِيَان به، لا خُنوعَ ولا ذِلة، وقد وَجَدَا والدَهُما فى الصفوفِ الأولى، يفتخَرانِ به ويتبعانه ويثقانِ فى توْجهاتِه، يتباهَيان به أمَام الجميع، ويعيشَان فى أسرةٍ كريمةٍ راقية.

هذا هو أحمدُ.. قد أوجدَه اللهُ قويًّا مُخلصًا جَادًّا فِى طلب العُلا - فأخذ بيدِه وصَنَعَ به تاريخًا حافلا مجِيدًا، قد أوْدع الله فى قلبه الثقة والكرامة والإباءَ، فنصرَه على كل الظُّروفِ والعواصفِ، وقوَّاه الله على ضعفِ الطفولةِ، وأنهضَه بفضلِه ورحمتِه من الحضيضِ إلى القمةِ، من حيثُ لم يكنْ يحتسبْ.. اختار أحمدُ طريقَ الرفعَةِ.. عانَى وَدَفع الثمنَ بالجوعِ والحرمانِ

والصبرِ فحصدَ أطيبَ الثَّمرِ.. ألا يستحقُّ الآن أن نقول عنه إنه فارس.. أو كالفارس؟

لم يترك أحمدٌ أهل بلده.. قريةِ ميت فارس.. بل إنه فى كل مشاكلها كان يحضرُ ويُساعدُ ويُنجزُ ويساهمُ فى مشروعاتِ الجهودِ الذاتيةِ.. والمصالحةِ بين المتخاصمين مما يستَعْصِى على المحافظِ نفسِه!!

كان والدهُ قد تُوفِّى خلالَ فترةِ وجُودهِ بالجامعة.. وكان يُوالِى زوجةَ أبيهِ التى صارتْ لا تستطيعُ أن تعول نفسَها.. واليومَ مع توالى السنين تُوفيَتّ هذه المرأةُ، فذهبَ ليتقبل العزاءَ فيها، وقد صار ذلك البيتُ المتواضعُ فى القرية بيتَه، ولم يعُد هناك مَنْ يَسْكُنه أيضًا هو ليْسَ فى حاجةٍ إليه، فلهُ فى كل مدينةٍ شقّة للسكن، وشقّة للمكتب وإدارةِ أعماله، فى كل منَ المنزلة ودكرنس والمنصورة والقاهرة، ولذلك رأى أن يتبرعَ بالبيتِ الذى فى القرية، وأمرَ بهدمه وإعادةِ بنائه على نَفقتِه كسرادقٍ دائمٍ للمناسبات، وكعيادةٍ طبيةٍ للمرضى، ترحُّمًا على أموات الأسرة..

وفى طريقِ عودته عصرَ ذلك اليومِ مُودِّعا أهلِ القرية بكل الحبِّ والحفاوةِ والتقديرِ: غادرَ قرية ميت فارس بسيارته مُتَوجِّهًا إلى دكرنس.. وكان يقودُ السيارةَ برفقٍ وهدوءٍ، كأنَّه يخشى أن يدوسَ آثارَ أقدامهِ تلك الصغيرةِ أيَام الحقبةِ الكالحةِ من حياته فى الطفولة، فقد عادَ شريط الذكرياتِ بكل تفاصيله يطوفُ بفكره، بَلْ إنَّهُ فى بعضِ الأماكنِ كان يُوقِفُ السيارةَ، وينزِل منها، وينظرُ مشيرًا إلى موقعٍ بذاته قائلا فى نفسه:

- فى هذا المكان كنتُ أجْلِسُ أيامَ الطفولةِ، أكتبُ الواجباتِ المدرسية..

ويذرفُ من عينيه دَمْعَتَىْ شكر وعرفانٍ للخالقِ العظيمِ الذى أكرَمَه وأخذَ بيدهِ إلى الصفوفِ الأولى، ورَزَقه مِنْ حيثُ لا يحتسب..



قِصَّةُ نَجَاحِ طِفْلِ القَرْيَةِ

الأطفالُ كثيرون منتَشِرون فى كلِّ مكانٍ، نراهُم فى الملاعِبِ والمتُنَزَّهاتِ والحدائقِ والشوارع..

أعمارهُم مختلفةٌ.. فى الرابعةِ من عمرِهم، فى السادسةِ.. وفى العاشرةِ أو الثانيةَ عشرةَ أو الخامسةَ عشرةَ، فى كل الأعمارِ وفى كلِ مراحلِ الطفولةِ.. يتعلمون من كل ما هُو حولهم من الأشياءِ ومن الناسِ.. فإن كان خيراً قلدُّوه وإن كان شراً قلدُّوه، يشاهدُون الكبارَ.. يسألونهَم فى كلِ الأمورِ، فإن اهتمَّ بهم الكبارُ وأرشدُوهم إلى الخيرِ وعرَّفوهم الطباعَ والسلوك الجميل كان هذا ما ينْبغى، فإن الطفل كلما كانَ صغيراً فإنه لا يستطيعُ الاعتمادَ على نفسه وحدهَ.. لا يعرفُ الحياةَ جيداً.. يلزمهُ مَنْ يأخذُ

بيده فيختارَ له الطريقَ.. مرةً بعد مرةٍ حتى يفهمَ أكثرَ ويعرف أكثرَ فإنَّ الكبارَ - كالآباء والأمهات - قد عرفوا الدنيا وفهموا الفرق بين الخير والشر وتحمَّلوا المسئولية فى تربيةِ أولادهم وحُسن نشأتهم، فالأطفال هم أفضل استثمارٍ، فالطفل الذى ينشأ على الطباعِ الكريمةِ والعلمِ والأدبِ والسلوكِ الراقى، هو مكسبٌ للناسِ والوطنِ وأمانٌ لكلِ مَنْ حَوله..

ومنذُ نحوِ خَمسين سنةً كانَ بطلُ قصتنا قد بَدأ حياتَه تحتَ تأثيرِ ظروفٍ اقتصاديَّةٍ سيئة، فقد كان يسير حافيَ القدمَيْنِ لا يملك نقودًا لشراءِ حذاء.. فتتعرض صحته لمرضِ البلهارسيا والإصاباتِ الجلديةِ بل إنه لا يملك نقودًا لشراءِ ما هو أكثر ضرورية مثل الطعام..

فى تلك الفترة كان (عوضٌ) صاحبُ القصةِ فى الثامنةِ من عُمره، يعيشُ مع أخَواته البناتِ الثلاث نفيسة وعمرها خمس سنوات - وسامية وسارة - مولودتان معًا - وهما فى عمر الثالثة..

أربعةُ أفراد.. مع جدتهما العَجوزِ التى تَخَطَّتْ السبعينَ منْ عُمرِها كليلةِ البصرِ ضعيفةِ العظامِ.. تفترشُ الأرضَ أمام مسكنِهم الطينى المتهالك

الذين يعيشونَ فيه على أطْراف القرية. هذه الجدَّةُ المسكينة التى لا تستطيعُ الحركة - إلا بجهد ومشقة - تعول هؤلاءِ الأحفادَ الأربعة عوض ونفيسة وسامية وسارة..

إذًا من أينَ لها أن تنفقَ عليهِمْ للمعيشةِ؟

إنها تعرضُ للبيعِ بعْضَ الحلوى الرخيصةِ على ظهرِ قفصٍ قديمٍ أمامَ ذلك البيتِ صابرةً، وقليلا ما تبيعُ!!

من هُنا نستطيعُ أن نُدركَ أن الأطفالَ الأربعَة لا يرعاهُمْ أحدٌ.. فإنَّ جدتهم تلك لا يمكنُها متابعتُهم أو رِعايتُهم.. بل إنها ضعيفة السمعِ. أيضًا لا سمعَ ولا بصرَ ولا صحةٍ.. ولا نقودَ تقريباً.. لا بيتَ صحِّى ولا معيشة طيِّبَة..

سيقاطعنُى أحدكُم ويسألُ عن والدِ الأطفال ووالدتهم؟ أين هُم؟ ستقولون إنهم ماتُوا.. بدليل أن الأطفال أربعة، منهم اثنانِ فى عمرِ الثالثة فقط؟ لكن الواقع أنَّ أمَّهم وأباهم مَازَالا على قيْدِ الحياة!

عجبا ما هذا الذى يحدث؟

ولكنهما كانَا دائماً على شِجَارٍ وخلافات لعدمِ توافرِ النقودِ للمعيشة وكل واحدٍ منهُماً يُلقى

باللوم على الآخرِ، وكلما نظرا إلى الأطفالِ الأربعة اشتد انزعاجُهما، فمن أين لهما أن ينفقا عليهم؟ لذلك فقد هرَب كل منهما مِن الآخرِ وانفصل عنه وذهب كل منهُما بعيدًا إلى بلدٍ بعيدٍ ونسىَ كل منهما مسئولياتِه، وتزوجَ كل منهما وأنشأ أسْرةً جَديدةً فى بيتٍ جديد.. كأن أولادهَما الأربعة قد ماتُوا..

إن جدةَ الأطفالِ الأربعةِ ليس لديها إمكانياتٌ سوى الحالِ التى هى عليه لا نكلفها بأكثرَ مما تستطيع.. إنها نفسها فى حاجةٍ لمَنْ يرعاها ومن يُحضر لها دواءً، وهى فى حاجةٍ لمنْ يحملها إلى المستشفى للعلاجِ فكيف ستعولُ هى غيرَها.. والأطفالُ أشدُّ حاجة للرعاية والمسئوليةِ أيضًا. فهُمْ دائماً فى حَاجَةٍ إلى الطعامِ والملابس.. بل والدَّواءِ والنظافةِ والاستحمامِ.. ورحلةِ التعليمِ..

فماذا يكون العمل هنا؟ هؤلاء الأطفالُ الأربعة أين يذهبُون؟ كيف يعيشُون؟ هل يبيتُون شِباعاً؟ هل هُم سُعداء فرحُون مُطْمَئِنُّون؟ لا يمكن أن يكونَ ذلك..

وعوضٌ.. كبيرُهم قد تخطَّى سنَّ المدرسةِ.. فاتَه قطارُ المدرسةِ ولم يلحقْ به، لم يكنْ بيده

شىءٌ.. هو وإخوانهُ.. طوالَ النَّهارِ يتخبطُون فى التُرابِ حول قفصِ جدَّتهم التى لا تكادُ ترى شيئاً ولا تسمعُ شيئاً.. ولكنَّ عوضَ كان يسمعُ جدتَه تصيحُ دائماً وتقول له تلومهُ: أنتَ الكبيرُ يا عوضُ أنت أخ البناتِ الكبيرُ.. أنت رجل البيتِ!!.. وكان عوضٌ زائغَ البصرِ.. شاردَ الفكرِ كالتائه فى أمواجِ البحر بلا دليلٍ ليسَ معه شىءٌ وليس بيده شىءٌ، يرى أقرانهَ وأمثاله فى العمرِ من الأطفالِ أبناءَ المدارسِ أغنياءَ بالطمأنينةِ وبالتعليمِ، وهو حىٌّ كالميِّتِ بالجهلِ والفقرِ والخوفِ..

وكان يُحدِّثُ نفسهَ: هل أنا رجلُ البيتِ فعلاً كما تقول جدَّتى؟ كيف ذلك؟ هل هى تضحَكُ علىَّ؟ ولكنى فعلاً الولدُ الوحيدُ.. أمامَ أخواتِى الثلاث!!

لكن أىُّ ولد؟. حافى القدمينِ.. لا أعملُ شيئاً.. لا أتعلمُ.. لا أكسبُ شَيْئاً.. لا قيمة لى، لا أستَطيعُ حتى أن أحمِى نفسِى.. فهل أستطيعُ أن أحمى أخَوَاتِى أو أحْمِى جدَّتِى؟ هل أنتظرُ إحْسَانَ المحسنِين؟

انتظرُ الطعامَ من الزكاةِ والصدقاتِ التى تأتينا أحياناً؟

وانتبه، والتفت إلى جدته واقتربَ منها ومال إلى أذُنها يُحدِّثُها، يرجُوها أن تمنحَه دَجاجَتَيْن صَغيرتَيْن من تلك التى تُربِّيها فى الخزَانةِ ليقيمَ لها عُشاً مستقلا يملكهُ ويعتنى بهما بصفةٍ خاصةٍ ويطعمُهما بمعرفته حتى تكبرا..

فقالت له جدتُه وهى تضْحكُ إنِّ ما بالخزانة كلِّها لنا جميعاً، قم بإطعامِها كلها وهى للجميع.. فقال لها: بالله عليكِ يا جدتى: أنا أريدُ دجاجتَيْن صغيرتَيْن لى أنا بصفةٍ خاصة، لا أريد أحداً يُشاركنِى فيهما.. أنا الذى أحمى عُشَّهُمَا وأنا الذى أطعِمُهما وأسقيهما وأتابعُ أحْوالهما..

فتحركتْ جدتهُ وقامتْ تجر ساقيها الضعيفتين حتى وصلتْ إلى خزانةِ الدجاج وعاونَها عوضٌ فى الإمساكِ بالدجاجتين الصغيرتين ووضَعهما فى قفصٍ صغيرٍ، حتى أقام عُشاً فى ركنٍ من البيتِ جَمع لتجهيزِه البوصَ والجريد وتيسَر له من الحطبِ والخيْشِ والأسْلاكِ والقشِ وصنَع له باباً من الصفيحِ.. وانتَشل الدجاجَتين من القفصِ

ووضعَهُما فى العُشِّ الجديدِ وأغلقَ عليهما البابَ وخرجَ إلى الشارعِ ليَسْعى فى جمعِ الطعَامِ لهما من الحشَائِش من البيت مثل كسرَاتِ خبز وحباتِ أرزٍ وقمحٍ وبعضٍ من ثمارِ الطماطمِ التالفةِ وكل ما استطاعَ من فضلاتِ الأطعمةِ والخضراواتِ من الأماكنِ المختلفةِ، واستحضرَ قطعة من الكرتون ووضعَ عليها الطعامَ.. وإنَاء قديمًا مملوءاً بالماءِ وقرَّب ذلك كله إلى الدجاجتَيْن.. وظل يراقبهُما ويدافعُ عنهما ويعتنِى بهما كل يوم.. وكان يشعرُ أنه بهذا يعمل شيئًا له قيمة.. هذا العُشُّ الجديدُ له هو وحدهَ شخصياً لا أحد سواه.. لا يسمحُ لأحدٍ أن يسرقَ ما فيه.. سوفَ تكبرُ الدَّجاجتانِ ويبيعُهما ثم يشترِى بثمنهما عشرةَ كتاكيتٍ أو أكثرَ ويُربِّيها هى الأخرى حتى تكبرُ ثم يبيعها.. ويقومُ بتوسيعِ العُشِّ ويشترِى مائة كتكوتٍ ويُربِيها وهكذا.. حتى يقومَ بشراءِ بيتٍ وحظيرةٍ كبيرةٍ ويصير تاجرًا كبيرًا ويبنِى بيتًا لكل أختٍ من إخوانه ويجمِيهم ويرعَاهُم ويكون رجل البيتِ فعلا كما تقول جدتهُ دائماً..

وهكذا هَدَأتْ حَيْرتُه ورضِىَ ضميرهُ وظلَّ على حالِه مع توالى الشُّهورِ، يتولى شئونَ الدجاجتين



ويحافظُ عليهما ويحميهما.. ولكنْ جدتهُ التى لا تكادُ ترى ولا تسمعُ ولا تستطيعُ المشْىَ على قدمَيْها الضعيفتين قد انتهزتْ فرصةَ انصرافِ عوضٍ للعبِ خارجَ البيتِ ساعة، وسحبتْ الدجاجتَيْن الكبيرتَيْن من عُشِّهِ الخاص، وفى الحال ذبحت واحدة وباعت الأخرى..

وعادَ عوضٌ من لعبِهِ، وتوجَّه كعادتِه إلى العُشِّ ليمتِّعَ نظرَه وقلبَه بما قد وصلَ إليه جهدهُ من نتيجةٍ طيِّبَةٍ مثمرةٍ.. فإذا به لا يجدُ شيئاً.. فتح البابَ الصفيح ونادى على الدجاجتَيْن بصوتٍ يعرفونه تماماً قائلا: - كت، كت، كت فإذا به يسمعُ أخواتِه الثلاثَ تضحكْن عليه وتعرِّفانه أن إحدى الدجاجتين فى «الحلة» فوقَ النارِ، والأخْرى فى «الحلة» فوقَ النارِ.. فى بيتِ الجيرانِ..

وصرخَ عوضٌ وبكى وانْهارَ وسقط أرضًا، احْتجاجاً على ما حدثَ من عدوانِ جدتِه ولم يأكلْ من الدجاجةِ مُطْلقا.. فكيْفَ يأكلُ منْهاَ؟! ألم يألف إليهما عدة شهور حتى أصبحوا أسرة واحدة.. بل كان يتصوَّر مرةً أنه من الصَّعبِ عليه أن يبيعَ الدجاجتَيْن أبدًا..

ظلَّ عدةَ أسابيعَ لا يخرجُ من البيتِ ولا يلعبُ ولا يفكرُ فى أيِّةِ محاولة أخْرى لعملِ شىء، بل لم يكنْ يتكلمُ.. فقط يفكرُ ويتأملُ.. ويخافُ أن يحلمَ بأشياءَ لا تتحققُ، فيصْطدِمَ بواقعٍ، الموت أفضل منه..

ورأى أن يخرجَ من البيتِ ليتنسمُ الهواءَ ويرى الناسَ بعد طولِ غيابٍ عنهم.. وما أنْ سارَ خطوات خارجَ البيتِ حتى عثُرَتْ قدمهُ فى حُفْرَةٍ لم يرَها فتكوَّرَ على الأرض وصرخ من الألمِ، ثم نهضَ ينفضُ الترابَ عن ثوبِه ويتحسَّسُ موْضعَ الألمِ فى أصابعِ قدمهِ وتسلخاتِ ركبتَيْهِ، ثم بعدَ دقائقَ التقطَ أنفاسَه واستردَّ اتزانَه وواصل السير متحمِّلا بعضَ الألمِ.. ثم دارَ دورةً فى الطرقاتِ وعادَ إلى البيتِ..

كان يحب الرسمَ فأحضرَ أوراقًا وقلمًا وظلَّ يرسم.. ونظرَ إلى أوراقٍ قديمة كانت بينَ حاجاتِه، كان قدَ رسمَ بها من قبلُ دجاجتَيْه، فظلَّ يرسمُهما مرةً أخرى وهو يتخيل منظرَهُما الجميل.. ولكنهَ تنبَّه وقال لنفسه: - إن الإصابة التى أصابَتْنى بفقد الدجاجتَيْن مثلُ الإصابةِ التى أصابتْنِى اليوم بسقوطى فى الحفرةِ وقيامى

بسلامٍ وسيرى بخيرٍ مرة أخرى.. هذه إصابة وتلك إصابة.. كلّ منهما صدمة وإصابة لا تنتهي بها الحياةُ.. الذى يمرَضُ يَصِحُّ مرةً أخرى والذى يفتقر يمكن أن يعوَد ويحاول ويغتَنِى مرةً أخرى..

إنَّ الذى تأخَّرَ عن قطارِ المدرسةِ يلحقُ به مرةً أخْرى، والذى فاتَه أمْرٌ لا يستسلمُ ولا يتركهُ.. بل يجرِى ويبذل الجهْد، ويلحقُ بالهدَف والله معه إن أخلصَ.. بل إن مِن الناسِ مَنْ يفوتهُ أمرٌ ويتصورُ أنه قد خَسِرَ كثيرًا، فيعُوِّضُه الله بأمرٍ أفضل منْه.. فقط نُحاول.. نجتهدُ.. لا نستسلمُ للحزن.. فإنَّ كلِّ إنْسَانٍ لديْهِ إمكاناتٌ وبُطولاتٌ قد أودَعَها الله فيه.. وما قد فاته يمكن أن يعوِّضَه بل يَصل إلى ما هو أفضلُ..

فقد سمعتُ إمامَ المسجدِ يقول: إن الله لا يُغيِّرُ ما بقومٍ حتى يغيرُوا ما بأنفسِهم..

ومنْ رحمةِ الله بنَا أنه قد أعطَانا القوةَ لنتغير مثلما قد أعطانِى القوةَ لأنْهضَ من الحفرةِ وأواصل السيرَ!!..

بَقِىَ أن أفكرَ جيدًا، مَا هوَ الطريق لإحداثِ هَذَا التغيير أنا أحبُّ الرسمَ فلماذا لا أذهبُ إلى

المدرسةِ.. حتى أتعلَّمَ الرسم والكتابة أيضا.. إذًا إلى المدرسةِ!!

واندفعَ عوضٌ خارِجًا من البيتِ مُتوجِّهًا إلى المدرسةِ الابتدائيةِ بنفسِ القريةِ وهو يجهل ما ينبغى عملهُ، فلا هوَ يرتدى الزىَّ المدرسىَّ ولا هوَ معه نقودٌ أو مصروفاتٌ، ولا معه أوراقٌ شَخْصية كشهادة ميلاد، فهو لا يملك حتى شهادةَ ميلادٍ ولكنه توجَّه إلى هناك كالتائه.

كاد عُمال المدرسة أن يطردُوه بمجرد وصوله إلى البوابةِ، ولكنَّ المديرةَ رأتْه فأدْخلتْهُ مكتبَهَا وقصَّ عليها قصتهَ، ونظرتْ إلى الطفلِ الذى يقتربُ عمرهُ وقتَها من تسعِ سنوات، واستعدت «الإخصائية الاجتماعية» ومجلسُ إدارةِ المدرسةِ.. وتعاطفَ الجميعُ مع الطفلِ عوضٍ، وقرَّرَ مجلسُ الإدارةِ تَسْهيل كل أمورِ هذا الطفلِ، وشراءَ ملابس لهِ واستخراجَ شهادةِ ميلادهِ من الجهات المختصةِ وسدادَ مصروفاته، وتسْليمَهُ أدواتٍ وكتبِ الصفِّ الأولِ، على أنَ يحضُرَ إلى المدرسةِ فى اليومِ التالى..

وحضَرَ عوضٌ وبعد ساعةٍ من وُصُولِه، صار مرتدِيًا الزىَّ المدرسىَّ وفى يدهِ الحقيبة بالكتب



والأدوات، وفى جيبه نقودٌ والتُقطتْ له الصُورُ الشخصيةُ اللازمة، وتسلم البطاقة المدرسية وبدأ الدراسة..

وكان عوضٌ «الفتيكى» - وهذا لقبه - أكبرَ فى العمرِ من كافةِ زُملائه فى الفصلِ الدراسى، فهو فى التاسعةِ وكل منهم فى السادسة. ومع مرورِ الأيامِ والأسابيعِ كان باجتهاده وذكائه متفوقا عليهم.. وكان بموهبتِه فى الرسم محبُوباً لدى إدارةِ المدرسةِ يُشاركِ فى تجميل الفصول، حتى إن فصله قد حصل بين الفصول على الترتيبِ الأولِ بين المدارسِ فى المظهرِ الجمالى وذلك حينَ أسْهَم التلميذُ عوضٌ برسُوماته فى تنفيذِ تعليماتِ مُديرة المدْرسة وأساتذته فى التنسيقِ والتجْميل، فرأى مجلسُ الآباء منح عوضٍ المساعدات، ورأتْ المديرةُ مَنْحَهُ جائزة مالية قدرها عشرة جنيهات، وشَعرُ عوضٌ وقتَها بكل السعادة وأن التفوقَ الذى وصل إليه هو مكسبٌ لابدَّ أن يتشبثَ به، فهو طعمُ الحياة.. وما أحْلى هذه الحياةَ، وسمعَ عوض مديرة المدرسة تناديه وتسألهُ: يا عوض: هل ستدَّخرُ هذه الجنيهاتِ العشرة قيمة الجائزة أم ستشترى بها حلوى أم ستشْتَرى أشياءَ أخْرى؟

فأجاب عوضٌ: يا أستاذة، إننى أنوى شراءَ زوجٍ من الدجاجِ وزوجٍ من الأرانبِ، أو أقومُ بإعطاءِ قيمةِ الجائزةِ كلها لجدَّتى دعماً لمشروعها الصغير، أو لشراءِ ما تحتاجُ إليه من دواء.

وأعْجِبَت المديرةُ بحديثِ التلميذِ عوضٍ.. الذى هو الآن فى الصفِّ الثانى الابتدائى ولكنَّ عقله كانَ أكبرُ من ذلك بكثيرٍ. فقالتْ له المديرةُ:

يا عوضُ.. اليومَ قُم بتسليمِ الجُنيهاتِ العَشرةِ كلها لجدَّتك..

فقالَ عَوَضٌ مُطيعاً (وهو يهمُّ بالانصراف):

حاضرٌ يا أستاذة.. سَأذْهبُ وسأسَلِّمُ جدَّتى المبلغَ كله حالا بإذنِ اللهِ..

بعد ساعةٍ أرسلتْ المديرةُ الدجاجَ والأرانبَ كمنحةٍ خاصةٍ للصغيرِ عوضٍ فهى فى مكانِ أمّه، وهو فى مَسيسِ الحاجةِ إلى مثلِ هذه الرعايةِ.. وهو يستَحقُّ، ولم يكنِ الطفل عوض قدَ تمنَّى الدجاجَ أو الأرانبَ ليأكل من لحومها ولكنَّه كان يريدُ أن يعودَ إلى تعميرِ عُشّه ويحقق حلمَه القديم.

وعاد العُشُّ إلى الحياة.. وصنَعَ عوضٌ بسرعة عُشًّا آخرَ للأرانبِ.. وعَاد يرسُمها ويجمِيها

ويتابعُها، ويطعمُها ويسقيها، وتساعدهُ أخواتهُ البنات فى جَمْعِ الطعامِ للدواجنِ والأرانبِ، وكان عوض يتجنَّبُ زُملاءَه التلاميذ الذين يَسْخَرونَ منه ويُريدونَ أنْ يصرِفوهُ عن هوايَتِه فى تربيةِ الطيُورِ والأرَانِب لأنهم يغارُون منه.. ويريدُون أن يحببُوه فى قضاءِ الوقتِ كله فى اللعبِ، ويخوّفونه من مرضِ الدجاجِ ومرضِ الأرانبِ، ولكنَّه كانَ يتعلمُ ممَّن سبقوه فى هَذا المشروعِ، وكيف يُداوِى الطيورَ والأرانبَ عِنْدَ اللزومِ..

ومع الأيام والشهور - كان يكتسبُ الخبرةَ مِنَ السوقِ، وأسعارِ البيعِ والشِّراءِ والمسَاوماتِ، ويعرفُ قيمة القرشِ والادخارِ، وكيف يحمِى مُمْتلكاته، فالذى يستطيعُ أن يحمِىَ ممتلكاتهِ ويحمِىَ نفسه. يستطيع أن يحمىَ وطنَهِ وأسرتَه ويكون رجلِ البيتِ حقا كما كانت تقول جدتهُ.. وعرفَ قيمةِ الوقتِ والمعاناةِ والجهدِ والصحيح والخطأ. وكانَ على يَقينٍ أنه يسيرُ فى الطريقِ الصحيحِ..

وكان تقدمُ عوضٍ فى المدرسةِ وأيضًا فى مشروعاته فى البيتِ يلفتُ الأنظارَ فبدأ زملاؤُه الذين كانُوا يغارُون منه، يقلدُونه بعملِ



مشروعاتِ تربيةِ دجاجةٍ أو اثنتَيْنِ فى البيت، ليكونَ كل منهم تلميذًا منتجًا ومتعلمًا فى نفسِ الوقتِ يتدربُ منذُ طفولتهِ على الاستثمارِ والإنتاجِ والرجولةِ والاعتمادِ على النفس..

ولم يتجاهل عوضٌ أخواتِه البناتِ فقد صَحِبَ أختَه نفيسة إلى المدرسةِ عند بُلوغِها السادسةِ من عمرِها، حيث ألحقَها بالصفِّ الأولِ، كذلك عندما بلغت أختَاهُ الأُخْرَيَتَان سامية وسارة سن السادسة أمكنَ أيضًا قبولهما بالمدرسة..

ولما أصبحَ عوض فى سن الثامنة عشرةَ، حصل على الشهادةِ الاعداديةِ كطالبٍ مجتهد، وفى نَفسِ الوقتِ كان بين يديه ثمانية عشرَ ألفَ جنيهٍ، وكان بينَ يديه تجارةٌ كبيرة.. أبراجٌ حمامٍ.. قطعة أرضٍ مُخَصصةٍ للدواجنِ فى حظيرةٍ كبيرةٍ، وأيضًا يصدِّرُ البيضَ للتجَّار..

واشتركَتْ أخواتُه البناتُ معه فى العملِ، فأفردَ لكل واحدةٍ منهنّ حظيرةً صغيرةً للدواجنِ خاصةً بها.. دفترًا خاصًا بحساباتِ كل منهنّ..

ومن الآن يمكنُ أن يحلم كما يشاءُ ويحقِّق الحلم الذى يريدُ، ويقوم بتنفيذِ بيتٍ لكل أختٍ من

أخواتِه.. فهو رجلُ البيتِ وكبيرُ الأسرةِ، فى جَيبِه النقودُ.. وفى شخصيتِه القوةُ والمهابَة، قد عَرَفَ الحياةَ واكتسبَ الخبرةَ، يحمى نفسه ويحمِى أخواتِه ولا يكون مثل والده ووالدته فهو رجل لا يُهربُ من المسئُولية.





رقم الإيداع	٢٠٠١/١٠٦٣٩
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6174-2

٧/٢٠٠١/٦٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)